« حول المكتبة »

نقد وتعريف : عبد الله الجبوري

وهذا ... كتاب آخر يردنا من العراق ، يدل عنوانه على مايضمه من بحوث ، وما يرمي اليه من غرض ، وهو النقد حيناً ، والتعريف حيناً ... والذي يهمنا من هذا الاتجاه الجديد في الادب العراقي ، ان اخواننا أدباء العراق بدأوا يشعرون بأن هنالك ضرورة تفرض عليهم ان يدرسوا مقومات أدبهم ، ويكشفوا عن صفحات مجهولة منه ، ليكملوا حلقة اتصالهم الثقافي بسلسلة الثقافة العربية الشاملة . ورد في مقدمة الكتاب : أنه مقالات وبحوث أدبية كتبت بدافع الحق والانصاف ، بعضهـــا في النقد ، والآخر في التعريف ، وآخر في الدراسة الادبية وآخر في البحث الادبي ... لتشارك في وضع لبنة في صرح الادب القومي ليصبح أدبنـــا أدباً عالمياً ...

ومن مقالاته البـــارزة « مع الرصافي في آثاره » وهو لايبحث في الشاعر ، وانما في آثاره المطبوعة التي لاتبلغ من الشهرة مابلغه الديوان ، وفي آثاره المخطوطة ، يقدمها بتعريف بسيط . والرصافي برغم الدراسات المتعددة التي استقطبت شعره ، فانه لايزال مجهولا ، مهملا في نواحيه الفكرية الجريئة الاخرى ...

وهناك « عراقيات الكاظمي » . والشاعر الكاظمي عراقي المولد ، والنشأة ، لكن ظروفاً

خاصة من الحياة جعلته ينتقل الى مصر ، ويتخذ منها دار مقام . وبذلك توزع شعره بين العراق ومصر . ولكن الدار الجديدة لم تكن لتنسيه الرصافة والكاظمية ... وظلت مجموعة ديوانية المنثورين خالية من شعره العراقي ، حتى هب الأديب الدكتور « حسين علي محفوظ » فأسدى يداً بيضاء للأدب بجمعه « شعر الكاظمي العراقي » في مجموعة جمعت تسع عشرة قصيدة كادت تضيع في زوايا النسيان .

وهناك بحث في « المسرحية في الشعر العراقي الجديد » ولا شك أن كل من أقدم على نظم المسرحية شعراً هو عالة على « احمد شوقي » الذي فتح هذا الباب للشعراء ، بعد ان كان مغلقاً . والتجارب التي قامت بعده لاتزال يعوزها النفس الطويل ، والبراعة الشعرية المرنة التي انفرد بها شوقي ... ولكن لاضير على هذه التجارب أن تنطلق . وان كان من رأيي أن المسرحية الشعرية لم تعد تتلاءم مع ذوق العصر . ويستشهد الكاتب ببعض مسرحيات لشعراء العراق . منهم « صفاء الحيدري » الذي سمى مسرحيته « عبث » وهي مسرحية رمزية ، والحيدري من شعراء الرمزية في العراق ، ولا أدري كيف أساغ الكاتب لنفسه الحملة على هذا الشاعر ، لمجرد أنه « رمزي » ؟ وهو يأبى « الرمزية » ويهاجم شعراءها ، لأنهم يضربون في مجاهل الرمزية ، ويوغلون فيها ايغالا بعيداً في حين أن مجتمعهم يصارع الآلام ... ولكن من ذا أوحى للكاتب بأن « الرمزية » لاتعبر عن نفسية معينة ، ولا تهدف الى غرض معين . ونحن لاننكر أن المسرح سلاح ماض يمكن استخدامه في توجيه المجتمع نحو الخير ، والمثل العليا ، والاهداف السامية التي يسعى من اجل تحقيقها الانسان الكريم في حياته . كما اننا لاننكر أن المسرح قد يعرض عن كل هذا ، ليصف النفوس المريضة ، والشخصيات المعقدة .. والشعر ، بعد هذا كله ، قد يكون أميل الى مرابع الخيال منه الى مرابع الحقيقة ... لأنه يجد فيها مرتعه ، ويترك الى الناثر مهمة التوجيه والتعليم والتهذيب ... والا فكيف يرحب الكاتب بمسرحيتين للشاعر « الشواف » يعود موضوعهما الى تاريخ بابل ، وحضارة البابليين ، والكلدانيين ؟ فاذا كان الشاعر الرمزي يقفز فوق مجتمعه ، فان شاعر الحضارات القديمة المتوارية يقفز فوق واقعه ، ولا يتصل بحياة حاضره . وخير مايقال في هذا الموضوع أن نقدر الاثر الشعري من حيث فنيته أولا ، ثم من حيث اتصاله بالحياة ... وهذا المقياس الذي ارتضيه لنفسي لايمنعني ان اعترف بأنني لم اطلع على شيء من المسرحية الشعرية العراقية ، ولكن اطلاعي عليه – في المستقبل – ان يبدل شيئاً من مقياسي هذا .

وهناك تعريف بكتاب « لارق في الاسلام » للاديب الحجازي الاستاذ « ابراهيم فلالي » ألم به المؤلف بتاريخ الرق في العالم منذ ان عرف الانسان التاريخ ، ويجعل من الاسلام مذهباً دينياً ، انسانياً ضاق بالرق ، وانكر استرقاق الانسان لأخيه الانسان ، يوم كانت أثينا وروما تحارب من اجل الرق ... والفلسفة اليونانية برغم عمقها ، وما تحلت به من التفكير الحر لم تستطع ان تحرر الانسان من الرق .

وهناك تعريف بكتاب « الرسول القائد » توخى مؤلفه « محمود شيت خطاب » ان يوضح جانباً مجهولا من جوانب الرسول ، وهو الجانب العسكري ، ليأخذ العرب من هذه الدراسة عبرة من حياة قائدهم الاول في اعداد القوة .

ومن تعريفاته اللامعــة تعريف المؤلف معنى الحرب في الاسلام بأنه « هو قتال العدو لتأمين نشر الدعوة ، وتوطيد أركان الاسلام ، مع

مراعاة حرب الفروسية الشريفة في القتال » وحرب الفروسية – كما عرفها المؤلف بقوله – هي كفاح شرف لايجوز أن يلجأ المحاربون فيه الى عمل ، او اجراء يتنافى مع الشرف ، وهو يرى « السلام في الاسلام نوراً يضيء للناس كافة ، والسلام اليوم نار تحرق وتدمر حياة الناس. »

وآخر المطاف في هذه البحوث « محاضرات عن الشعر العراقي الحديث » ويبدو – من وراء هذه البحوث – ان ادباء العراق قد أحسوا اهمال الدراسات الادبية للشعر العراقي، فراحوا يدرسون شعرهم، ويعرفونه في محاضرات يلقونها ، وكتب يؤلفونها ومن هذه الدراسات كتاب (محاضرات عن الشعر العراقي الحديث) للاستاذ عبد الكريم الدجيلي ، نشره معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية . ومنها كتاب عن الشعر العراقي الحديث للدكتور يوسف عز الدين.

اما هذه المحاضرات عن الشعر العراقي الحديث في هذا الكتاب ، فيبدو منها أن مؤلفها أراد ان تكون نقداً ورداً على الاستاذ الدجيلي ، الذي – كما يقول المؤلف – جانف الحق ، ولم يلتزم الحياد، اذ أشاح بوجهه عن اركان النهضة الأدبية في العراق العربي لحاجة في نفسه . واذا لزمنا موقف الحياد من هذه الخصومة فاننا نعترف بان هذه المحاضرات استدراك لما فات المؤلف الاول ، واحقاق لحقوق من اهملهم المؤلف ، وبخس قدرهم ... وفي الحق ان الذي يطلع على هذا الاستدراك يشعر بأنه كان ضرورياً ، لأنه كشف الستار عن شعراء مرموقين قد أهملوا ، او طففت موازينهم عند الحساب ...

والحق ان الذي يتصدى للنقد ، وتسجيل الحركات الأدبية في عصر من العصور ، يجب ان يتحلى اول مايتحلى به بالاخلاص لنقده ، والصدق في نقده ... وان يتجرد من كل هوى متحيز ، ويبرأ من كل حقد متميز ... ولكن هيهات... هيهات . فقد رأينا الاحقاد الثائرة – حتى في الادب – هي التي توجه صاحبها ، وهي التي تملي. وما قولك فيمن تصدروا دواوين النقد ، لقوا احكامهم كلها بالحقد ، وطاب لهم ان يذكروا المجهولين ، ويغفلوا المرموقين ، لمجرد صداقة او منفعة تربطهم بالاولين ، او بمجرد عداوة تصرفهم عن الآخرين . ولقد كان الاوائل اكثر انصافاً منا في هذا الباب ، لأننا لم نجدهم يصدون عن الاعتراف بالحق ، ولو كان صاحب هذا الحق من يخالفهم في المبدأ ، او الهوى . وأمثال هؤلاء سيحاسبهم التاريخ بعد ان تفنى الصداقات وتموت العداوات ، ويأخذ عليهم هذا التحيز والتعصب الكلي .

فالكاتب – اذن – لم يرد من محاضراته هذه الا الاشارة الى بعض شعراء أهملوا في الدراسات الاولى ، وهم من هم في العراق ، والاستشهاد ببعض القصائد الرائعة التي تولیهم هذه المنزلة ، وهو عمل محمود يدل على الغيرة على الشعر والشعراء . وفي – هذه المحاضرات – نقع حقا على مختارات من الشعر القومي والاجتماعي لايصح اهماله ، أو نسيانه، وبخاصة اذا اجتمعت له المقومات الفنية.

ولكني كنت اريد للكاتب ان يكون اكثر اعتدالاً في اسلوبه ، واقل اتهاماً لغيره ، لان الحقيقة يكفيها ان تسفر حتى يندحر الباطل ،

والشمس بفنيها ان تطلع بدون ان تلمن الظلام.

ومن هذه النقطة ينطلق الكاتب في بحثه الذي يصفه بانه جاء « احقاقا للحق ، وانصافا للشعراء الذين صفح عنهم المؤلف ، ورغبة في ايقـــاف القارىء العربي على الحركة الشعرية في العراق العربي ... »

ومن أمثلة ما يشير اليه الكاتب نقده لفصل من فصول « الدجيلي » عن الشعر الحديث والتغني بالقومية العربية ، فالفصل الذي استهلك ست صفحات فقط لا يعد شيئاً بالنسبة الى ضخامة الموضوع . مع العلم ان أبرز سمة يتميز بها الشعر العراقي الحديث هو التغني بالقومية العربية ، والترنم بأمجادها ، والاشادة بمفاخرها الخالدة ، وابطالها الخالدين . . . ومن ذلك اهماله « للكاظمي » الذي يعد من قمم الشعر العراقي الحديث ، وهو الذي وقف عاله وقلبه على خدمة الأمة العربية ، وهو صاحب هذه المقطوعة الرائعة :

سيروا بنا عنقاً وشدّا
سيروا بنا مسىً ومغدى
سيروا فرادى أو ثنىً
والجمع للغايات أجـــدى
لتسر وفودكم الى
تلك الربى وفداً فوفدا
سيروا الى الوطن الموقى
بالنقائب ، والمفدّى
ياحبذا وطن يُغنّى
باسمه أبدا ، ويُحدى

وطن تقادم ذكره —
عند المكارم ، واستجدا

وصاحب هذه المقطوعة التي لا تنسى على الدهر :

الى العرب الكرام بكل أرض
أمدّ يدي ، وأطلق من لساني
وما أرض العراق لمن جناها
وأرض الشام الا جنتان
هما الأختان ، والعليا مجال
اذا ماقيل فيها ضرتان
وأنهما متى لقحت بطون
وأنتجت المعالي — توأمان
جميع العرب اخوان ، فهذا
لهـذا في العلى أقوى ضمان
متى كنا جميعاً في بناء
بلغنا الشامخات من المباني

ومن ذلك ايضاً اهماله للشاعر « رشيد الهاشمي » الذي قارع الطغيان التركي بصواعقه اللاهبة ، وكان من أوائل الشباب العاملين في سبيل القضية العربية ، وسجن وشرد ونفي وحكم عليه بالاعدام من أجـــل القضية العربية . ومن مقطوعاته المشهورة « أيها الليل » وهو يريد ليل الذل والطغيان .

أيها المستبد . كيف تجازي
قمراً كان هادياً للساري ؟
أنت ياليل باضطهادك ضيقـ
ـت على همتي . . . على أفكاري

سيلوح الصباح المفير ، فيوري

وجهك المكفهر جذوة نار

أنظر الفجر قد بدا كحسام

لاح للناظرين ، تحت الغبار

الفرارَ الفرارَ ياليل ان الـ

ـطعن ساق الجبان نحو الفرار..

ومن هؤلاء المهلين الشاعر « محمد الهاشمي » الذي نشر شعره في مختلف الصحف والمجـلات العربية ، وله ديوان منشور في دمشق ، اسمه « عبرات الغريب » ومن شعره هذه الصرخة :

أيها الشعب أفق من رقدة

واملأ السهل معاً والجبلا

فحياة الذل موت واقع

فاطلب العز ، ومت مستبسلا

أنت بحر هادىء ، حتى اذا

هجت للظلم قلبت الدولا

ومنها أيضاً :

أيها الشبان . أنتم أمة

يبلغ الشعب بكم أوج العلا

أنتم الشعب ، وأنتم أهله

فالى كم تألفون الوجلا؟

أين ماترجونه من أمل

لبلاد ، ولشعب مبتلى ؟

استفيقوا . انكم في غفلة

تجعل الأمر خفيا ، مشكلا

واسألوا أين المواعيد التي

هي كانت لشعوب شغلا

كذبٌ ، والله ، خود عنابه

كان ضرباً من رياء فانجلى

هذه الأوطان تستنهضكم

فاذكروا الماضيَ ،والمستقبلا

ومنهم الشاعر الحاج ابراهيم الزهاوي وهو غير جميل صدقي الزهاوي تغنى بالعروبة وأمجادها عن عقيدة وايمان راسخين . وهو ممن لحقهم الجور والارهاب في العهد المندثر ، وكانت تلقبه الصحف والمجلات « بأمير شعراء الشباب » ومن شعره قصيدة بعنوان (الوحدة العربية)

أقصى زمان للولادة عام

فالى متى بك تبخل الأعوام؟

ياوحدة عربية ، في مهجتي

شوق الى استقبالها وغرام

تعنو المعالي للجميع قبيلهم

وظهورهن على الشتيت حرام

برزت الى الميدان أمة يعرب

فدعوا الطريق لها،فليس تسام

فمتى ترى عيني العروبة سيفها

فوق السيوف، وذكرها بسام

تجري يداها في أعنة أمرها

في كل قطر ، مالها استسلام

ترمي بسهم واحد عن قوسها
فتطيش عنها للشعوب سهام..

وفي معرض الحديث عن الزهاوي ، نرى صاحب النقد والتعريف يحمل على – الدجيلي – لمجرد دفاعه عن الشاعر «جميل صدقي الزهاوي» والزهاوي شاعر له منزلته المرموقة في العالم العربي ، سواء أكان شاعراً ، أم مفكراً . وان « لصاحب النقد والتعريف » ان ينقم على الزهاوي ، لأنه لايتفق مع تجديده _ أو زندقته _ كما أراد أن يقول . وان للأذواق مجالها في الاعجاب بالشيء ، او النفور منه ، لايجادلها في ذلك مجادل ، ولكن الذوق ينكر الجملة العنيفة التي يغلب فيها الهوى على العقل ، وما دام الكاتب وقف محاضراته هذه طلبا للانصاف ، وحرصا على الحقيقة ، فما أجدر به ان يقف من الأمر موقفاً ايجابياً ، لا موقفاً سلبياً هو في غنى عنه ... والا فماذا يغني الموضوع أمثال هذه الجمل المتعصبة ؟ « فالزهاوي ذو الأعصاب المشلولة ، والنفس المريضة ، والعقيدة الملحدة ... » وجلي الأمر أن الزهاوي يتمتع بحسنات لاتنهض اليها السيئات ، وكأنه — في حياته — قد أحس بهذه الحملات : فقال شاكيا

ان الأكف التي قد كنت آملها
للذود صارت مع الايام ترميني
أمست رماح بني عمي وقد حنقوا
تنوش جسمي ،وكانت شرّعاً دوني..
بقيتُ والحقّ منبوذين في نكد
أبيت في الدار أبكيه ويبكيني

هذا ما عن لي ذكره حول كتاب « نقد وتعريف » واذا اصررت على طلب التجرد من مؤلفه ، فلأنه وضع كتابه في اطار هذا التجرد... والتجرد في نظري أول واجبات النقد... ولعل المؤلف يحسن الظن في نقدي هذا ما دامت الحقيقة هي الغاية .

●